﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فُصّلت: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكْـر محاسن الأعـمـال بين الـعـبـاد بعد ذِكْرها بين العبد وربِّه

بعد أن أبان المولى سبحانه جليلَ الأعمالِ الصّالحة التي تجمع بين العبد وربِّه، أتى على ذكرِ محاسن الأعمال بين النّاس؛ ليكونَ هذا إلهابًا وتهييجًا للنَّبيِّ الكريم ﷺ على الصَّبر حيالَ أذى المشركين، ومقابلةِ إساءتهم بالإحسان، فإنَّ الحسنة التي تُرضي اللّهَ، ويُمنح عليها الجزاء، لا تستوي مع السَّيّئة التي يَكرهُها، ويجازي عليها بالعقاب، ولا تستوي دعوةُ الرَّسولِ إلى طريق الحقِّ، والصَّبر على أذى المشركين وسفاهتهم، وتركِ الانتقام منهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَسْتَوِي﴾: (سوي) أصلٌ يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بَيْن شيئَيْن، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادلُه، وفلانٌ وفلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمرِ، أي: سَواءٍ[2]، والتَّسويَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتأتي بمعنى العَدْلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيئَين؛ إذا عَدَلتُ بَينَهُما[3]، وهي أيضًا: تَقويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُهُ، تَقولُ: سَوَّيتُ الشَّيءَ فاستَوَى، أي: قَوَّمتُهُ، فاستَقامَ[4]، والمقصود بالمساواة في الآية: جَعْلُ الأشياءِ متساويةً.

2) ﴿ٱدْفَعْ﴾: (دفع) أصلٌ يدلُّ على إزالَةٍ وتنحيَةٍ، تَقول: دَفَعَني فُلانٌ، أي: أزالَني مِن مَكاني بِشِدَّةٍ[5]، والدَّفْعُ: دَفعُك الشَّيءَ عَن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 368.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوا).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (عدل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفع).

نَفسك، وكلُّ شَيء أزلتَه عَنْك فقد دَفعتَه[1]، والدَّفْعُ: الإسراعُ والتَّتابُعُ في السَّيرِ، يُقال: دَفَعَتِ الخَيْلُ، أي: سارَت[2]، وأُطلِقَ في الآية على الوِقايةِ، أي: ادفع أثرَ السَّيِّئة بالخَصْلة التي هي أحسن.

3) ﴿حَمِيمٌ﴾: (حمم) أصلٌ يدلُّ على الدُّنوِّ والحُضورِ[3]، والحَميمُ القَرابةُ، يُقالُ: مُحِمٌّ مُقْرِبٌ، والحامَّةُ خاصَّةُ الرَّجل من أهله ووَلَدِهِ وذي قَرابَتِه[4]، وقيل: هو القَريب المُشْفِق الَّذي يحتَدُّ حِمايةً لِذَويه[5]، وهو أيضًا الَّذي يَوَدُّكَ، وتَوَدُّه[6]، والجمعُ: أحمّاءُ، وقد يكون الحَميمُ للواحِد والجميع والمؤنَّث بِلَفْظ واحِد[7]، والمُراد به في الآية: القَريبُ والصَّديقُ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

انتِفاءُ تَساوي الحَسَناتِ والسَّيِّئات بَعضِها ببَعضٍ

يُرشِدُ اللّهُ تعالى إلى ما يُؤدّي إلى إشاعةِ المَحَبَّةِ، فيقولُ: ولا تستوي الخَصلة الحَسَنة والخَصلة السَّيِّئة في الآثار والأحكام، فإذا أساءَ إليك مسيءٌ؛ فادفَعْ - يا مُحمَّدُ - ﷺ سَيِّئَةَ النّاسِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ، فأحسِن إلى مَن أساء إليك، وادعُهم بالحِكمةِ والرِّفقِ، واللّينِ وحُسْنِ الخِطابِ، واحلُم عليهم، واصفَح عنهم، واصبِر على أذاهم، فإنَّك إن فعَلْتَ ذلك؛ صار مَن هو عدوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ المحبَّةِ لك، وفي الآية دليلٌ على أنَّه نُدِبَ إلى الإحسانِ إلى المُسيءِ؛ لِتأتلِفَ الأُمَّةُ، ولا تَفترِقَ، ولا تَتباغَضَ[9].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (دفع).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (دفع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حمم).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (حمم).
(6) الخليل، العين: (حم).
(7) ابن سيده، المحكم: (حم).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 432، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 564، 565، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 306، والقصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 4/ 77.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو بين العطف والاستئناف في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى﴾:

إزالةُ التَّردُّد وتأكيدُ فضلِ الدَّعوة إلى الله في انتفاء المساواة بين الحسنة والسَّيّئة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ استئنافيَّة، فبعد أن ذكر الله ﷻ الدَّعوةَ إلى الله تعالى، وهي من أعظم الطّاعات، إلّا أنَّ الصَّبر على سفاهة الكافرين والمشركين، وما يصاحب ذلك من إهانة وشدَّة، قد يُثير في النُّفوس بعض التَّردُّد أو الإحباط؛ ولذلك جاء هذا التَّوكيد الإلهيُّ؛ ليُطَمْئِنَ المؤمنين في انتفاء المساواة بين الحسنة والسَّيّئة[1].

والاستئناف هنا مسوقٌ لتوضيح محاسنِ الأعمال التي يتبادلها العبادُ فيما بينهم بعد أن انتهى من بيان محاسن الأعمال المقرونة بعلاقة العبد بربِّه سبحانه، وفي الآية ترغيب له ﷻ في الصَّبر على أذى المشركين، ومقابلة إساءتهم بالإحسان[2].

عطفُ الجملةِ على الجملةِ تكملةٌ له لبيان التَّفاوت الجوهريِّ بين الفريقين

ويجوز أن تكون الواو عاطفةً هذه الجملة على جملة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فهما جملتان تشتركان في الغرض ذاته، وتُعَدُّ هذه الجملة تكملةً لتلك؛ إذ إنَّ المعطوف عليها تضمَّن الثَّناءَ على المؤمنين بعد وعيد المشركين وذَمِّهم، غيرَ أنَّ هذه الجملةَ توضِّح التَّفاوتَ الواضحَ بين مرتبة المؤمنين وحالة المشركين، فالحسنة كونها اسمًا منقولًا من الصِّفة تُشير إلى حالة المؤمنين، بينما السَّيّئة تُمثِّل حالةَ المشركين[3].

تخفيف الضَّيق عن قلبه ﷺ في مواجهة إصرار الكافرين على الضَّلال

ويجوز أن تكون عطفًا على جملة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: 26] الواقعة بعد جملة: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: 5] إلى قوله:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 564.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 14.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 289، 290.

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: 5]، فإنَّ ذلك كان يُشعر النَّبيَّ ﷺ بالضَّجر من إصرار الكافرين على ضلالهم، وعدمِ تأثُّرهم بدعوته إلى الحقِّ، فكان بحالٍ من تضييق طاقة صبره على سفاهة أولئك المكذِّبين؛ فعطف هذه الجملة دفعًا لذلك الضّيق عن نفسه ﷺ ؛ لتكون من باب عطف القصَّة على القصَّة[1].

دلالةُ النَّفي بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ استُعمِل حرفُ النَّفي (لا)؛ للدَّلالة على النَّفي المطلق؛ إذ إنَّ (ما) إذا دخلت على الفعل المضارع؛ كان نفيها مقيَّدًا بالوقت والمكان، ممّا يجعلها تقتصر على الحال[2]، فيكون النَّفيُ جزئيًّا ومؤقَّتًا، أمّا (لا)؛ فهي نفيٌ شاملٌ يتجاوز الحدودَ الزَّمانيَّة والمكانيَّة، فيؤكِّد أنَّ استواء الحسنة والسَّيِّئة يستحيل على الإطلاق، وفي جميع الأوقات والأحوال[3]، فلا مجالَ للمساواة بينهما في أيِّ حال من الأحوال.

لا تستوي الحسنةُ والسَّيِّئة في عموم الأحوال والأوقات

دلالةُ التَّعبير بنفي الاستواء في قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي﴾:

نَفيُ الاستواءِ بين شيئين يُقصد به غالبًا التَّفضيلُ الواضح لأحدهما على الآخر، وذلك بناءً على دلالة السّياق الذي يحدِّد معايير المفاضلة؛ إذ لا يمكن التَّساوي في الفضل أو الأثر بين الحسنة والسَّيِّئة وآثارِهما وعاقبتِها، كالوارد في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ۝١٨﴾ [السَّجدة: 18][4].

تفضيلُ الحسنةِ على السَّيِّئة، فلا تتساويان في الفضل والأثر

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ دون غيرها:

لَمّا قال الذين آمنوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، فقد أظهروا إيمانًا صادقًا، وأحسنوا في قولهم وإجابتهم لله، فاستقاموا على

المؤمنون أحسنوا في قولهم وإجابتهم الدَّعوة، والكافرون أساؤوا وكذَّبوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 290.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 191.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 162.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 291.

طاعته، ولبّوا دعوتَه بأفعالهم وأقوالهم، فاستُحِقَّ أن يُسمَّى قولهم: (حسنة)، ولمّا قال الذين كفروا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26]، فقد أظهروا تكذيبًا وجحودًا، وتمادَوا في محاربة الحقِّ، فسمّاها الله تعالى (سيِّئة)؛ فاختلفت أحوالهم، وهي كذلك عند الله تعالى[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

(أل) في الاسمين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ دالَّةٌ على الجنس والاستغراق[2]؛ إذ تشير إلى جنس الحسنات والسَّيّئات عمومًا، فالحسنات ليست متساويةً في الدَّرجة، بل هي متفاوتة في درجات الكمال والجمال، فبعضها أرفع وأسمى من بعض، وكذلك السَّيّئات، فليس كلُّها على درجة واحدة، بل بعضها أسوأ وأخبثُ من بعض[3].

جنسُ الحسنات متفاوتٌ في الحُسن، وجنس السَّيّئات متفاوتٌ في السّوء

سرُّ التَّعبيرِ بالإفراد فيهما دون الجمع:

﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ في الآية دالَّتان على الجنس والاستغراق، والجنس يقتضي الشُّمول والعموم؛ لذلك كان من الأنسب أن تأتيَ الكلمةُ مفردة؛ لتُعبِّر عن التَّفاوت في نوعيهما، فيصبح المعنى بذلك: "ولا تستوي الحسنات، إذ هي متفاوتة في أنفسها، ولا السَّيّئات؛ لتفاوتها أيضًا"[4].

لا تستوي الحسناتُ ولا السَّيّئات لتفاوتها في أنفسها

دلالةُ تقديم ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ على ﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾، فالحسنة تنبع من مقام العقل الذي يرفع صاحبه إلى الجنَّة، ويُقرِّبه من ملائكة الرَّحمن، بينما السَّيّئة تنبع من مقام النَّفس التي تجرُّ صاحبها إلى

الحسنةُ تنبع من مقام العقل، وهو مُقدَّم، والسَّيّئة تنبع من النَّفس، وهي مُؤخَّرة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 470.
(2) السمين، الدّرّ المصون: 9/ 223.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 278.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 306.

النّار، وتُدنيه من الشَّياطين[1]، ولأنَّ العقل هو المُقدَّم على النَّفس في توجيه الإنسان نحو الخير، فقد قُدِّمت الحسنة على السَّيّئة في هذا الموضع؛ لتُبيِّن عِظَم تأثير العقل السَّليم في توجيه الإنسان نحو الفضيلة والخير.

الحسنةُ دعوتهم إلى الدّين وهي سابقة، والسَّيّئة ما أظهروه من المخالفة، وهي لاحقة

والحسنة هنا هي الدَّعوة إلى الدّين القويم التي تحمل في طيّاتها النّورَ والهداية، والصَّبرَ على جهالتهم وسفههم، وتركَ الانتقام منهم، والسَّيّئة ما كان من إظهارهم المخالفةَ والعناد[2] الَّتي يقود أصحابه إلى الضَّلال، والدَّعوة إلى الحقِّ تسبق في قوَّتها وأثرها ما كان من فعلهم.

دلالة تكرار (لا) في قوله: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

تحقيقُ التَّفاوتِ الجوهريِّ بين الحسنة والسَّيّئة وتوكيدُه

إذا عُلم أنَّ (لا) الدّاخلة على لفظة ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ تفيد النَّفي[3]، فإنَّ تكرارها بدخولها على لفظة ﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ واردٌ لتقوية المعنى وإفادةِ التَّوكيد، على معنى: (ولا تستوي الحسنة والسّيّئة)[4]؛ لأنَّ فعْلَ الاستواء يقتضي وجودَ طرفَيْن، ولا يكتفي بواحدٍ[5]، ففي (لا) الثّانية تحقيقُ التَّفاوت الجوهريِّ بين الحسنة والسَّيّئة، وآثارِهما على النَّفس والمجتمع.

التَّفاوت بين الحسنات والسَّيّئات في نفي التَّساوي وبيانِ تفاوت الأثر

ويجوز أن تكون (لا) الثّانية مُؤسِّسَةً، وليست مُؤكِّدة[6]، فالمقصودُ هو نفي تساوي الحسنات مع بعضها، وتأكيدُ التَّفاوتِ بينها، وكذلك نفْيُ تساوي السَّيّئات مع بعضها، وإثباتُ تفاوتها، بمعنى أنَّ بعض الحسنات قد تكون أرفعَ وأعظم من غيرها، كما أنَّ بعض السَّيّئات قد تكون أقبحَ وأشدَّ ضررًا من غيرها[7].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 340.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 386.
(3) صافي، الجدول: 12/ 310.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 386.
(5) ابن يعيش، شرح المفصّل: 5/ 76.
(6) السمين، الدّرّ المصون: 9/ 527.
(7) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 163.

بلاغةُ الاحتباك في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ واردٌ مورد اللَّفظ القليل، الحاوي على المعاني الجَمَّة، فإنَّ التَّقدير هنا: "ولا تستوي الحسنة والسَّيِّئة، ولا السَّيِّئة والحسنة، فحُذِف اختصارًا"[1]، فمُراد الأوَّل: نفْيُ أن تتساوى فضائلُ الحسنات مع مساوئ السَّيِّئات، والمُراد بذلك: نفي أن تُلحَق السَّيِّئةُ بشرف الحسنة، وهذا هو الاستواء في الخصائص، وفي هذا تأكيدٌ وتقوية لنفي المساواة؛ ليُؤكِّدَ أنَّه نفيٌ تامٌّ[2]، لا يقبل التَّداخلَ بين الحسنات والسَّيِّئات، وهو من باب الاحتباك.

تأكيدُ نفي المساواة بين الحسنات والسَّيِّئات، وتوضيحُ استحالةِ تداخلِهما

بلاغةُ المجاز بالحذف في ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ مجازٌ بالحذف، فإنَّ الحسنة والسَّيِّئة وصفان لموصوف محذوف، تقديره: الخصلة الحسنة، والخصلة السَّيِّئة، وهما في سياق النَّفي، أي: لا تستوي الخصلة الحسنة، والخصلة السَّيِّئة في الجزاء وحُسْن العاقبة[3]، وغرضُ الحذفِ: التَّنبيهُ على وصفهما ترغيبًا حالةَ كونِها حسنةً، وتبعيدًا حالةَ كونِها سيِّئةً، وأنَّ موصوفَ كلٍّ مهما استترَ، وخفي، فإنَّ الأثر لصفته يُظهِره، ويقيمه.

لا تستوي الخصلةُ الحسنة والخصلة السَّيِّئة في الجزاء وحُسْن العاقبة

دلالةُ المجاز في نفي استواء ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

للحسنة والسَّيِّئة في الآية دلالاتٌ مجازيَّة كثيرة، ذَكَرَها كثيرٌ من المفسِّرين، ومِن دلالات الحسنة: الإيمانُ بالله تعالى، والعملُ بطاعته، والعفوُ والصَّفح، وكلمة التَّوحيد لا إله إلّا الله، والمداراةُ والصَّبر، والإيمانُ والعفو والحِلْم، وحبُّ آلِ رسول الله ﷺ، ومن دلالات السَّيِّئة: الشِّركُ بالله تعالى، والعملُ بمعصيته، وما يكون بين

الحسنةُ الإيمانُ بالله وما يُؤدّي إليه، والسَّيِّئة الشِّرك بالله وما يفضي إليه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 291.
(3) حقّي، روح البيان: 8/ 262.

النّاس - كالشَّتم والبغضاء - والغلظةُ، والنُّفورُ، والفحشُ، وبغضُ آلِ رسول الله ﷺ[1].

شتّان بين عاقبة الحسنات وبين عاقبة السَّيّئات

ومِنَ الدَّلالات المجازيَّة في الآية: أنَّ ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ إذا اجتمعت مع العمل الصّالح، فإنَّها تكون سببًا لاستحقاق التَّعظيم في الدُّنيا، والجزاءِ العظيم في الآخرة، بينما ﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ بما تحمله من معانٍ مخالفة تجرُّ صاحبَها إلى عواقبَ وخيمةٍ، فتكون عاقبتُه غضبَ الله وعقابَه[2]، وبذلك ينفي اللّهُ تعالى تساوي العاقبة بين الحسنات والسَّيّئات[3]، ويُؤكّد بجلاء أنَّ لكلٍّ منهما أثرًا لا يُشْبهُ الآخر.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

تباينٌ جوهريٌّ بين النَّقيضين في القيمة والأثر في الدُّنيا والآخرة

بين ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ يظهر الطِّباقُ بوضوح، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ يهدف إلى بيان التَّباينِ الجوهريِّ بين النَّقيضَيْن، فالطِّباقُ هنا يعكس التَّفاوتَ الكامل بين الحسنة والسَّيّئة في القيمة والأثر، وأنَّهما على طرَفَي نقيض، وأنَّ كلًّا منهما يُفضي إلى نتيجة مختلفة تمامًا في الدُّنيا والآخرة.

سرُّ فصل قوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

ردُّ الإساءة بما هو أحسن أبلغُ في التَّأثير وأعظمُ في الأجر

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ يخرِّج مخرجَ الجوابِ عن قول القائل: كيف أصنع مع مَنْ يسيء إليَّ؟[4] فكان الجواب هو الأسمى من التَّصرُّفات، ويُبيِّن كيفيَّة التَّعاملِ مع الإساءة؛ إذ يُؤمَر المسلمُ أن يدفع السَّيّئة بالتي هي أحسن، أي: أن يَرُدَّ الإساءةَ بما هو أرقى وأسمى من العفو، كالإحسان إلى مَن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 471، وابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 153، ومكّي القيسيّ، الهداية: 10/ 6524، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 182، والعِزّ بن عبد السّلام، تفسير القرآن العظيم: 3/ 131.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 564.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 162.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 200.

أساء إليه، وهذا أبلغُ في التَّأثير، وأعظمُ في الأجر[1]؛ ليتحقَّقَ بذلك أعظمُ الأثرِ في تهذيب النَّفس، وتربيةِ المجتمع على فضائل الأخلاق.

ولَمّا كان في الحَثِّ على الإقبال على الحَسَن، والإعراضِ عن السّيّئ إشارةٌ إلى تفاوت الجزئيّات واختلافِ الدَّرجات بينهما، وأنَّ الإنسان لا بدَّ أن يواجِهَ من العوارض ما يُعَكِّر صفوَه، سواء من النّاس أم من نفسه؛ كان لا بدَّ له من دفع تلك العوارض وتجاوزها، فجاءت الكلمة الإلهيَّة: ﴿ٱدۡفَعۡ﴾[2]، فما تقدَّم سببٌ، وهذه نتيجةٌ، وما مضى مُقدِّمةٌ، وهذا مقصدٌ، وهذه الجملة ناشئة من مضمون تلك[3].

الدَّفعُ بالأحسن نتيجةٌ لما يواجِهُ الإنسانَ من العوارض التي تُعكِّر صفوه

بلاغةُ التَّعبير بجملة: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بعد الجملة السّابقة عليها:

وقوع جملة: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بعد جملة: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ تخلُّصٌ بديع من غرض التَّفضيل بين الحسنات والسَّيّئات، فينتقل إلى أمر عمليٍّ يرتقي بالإنسان نحو الخُلُق الرَّفيع، وهو دفع السَّيّئة بالحسنة، فذلك الدَّفعُ هو ثمرةُ تفضيل الحسنة، وهو إرشادٌ من الحقِّ تعالى لرسوله وأُمَّته إلى ضرورة التَّخَلُّق بهذا الخُلُق العظيم[4]، الذي يتجسَّد في التَّجاوز عن الإساءة، والرَّدِّ بالإحسان؛ ليرتقيَ المؤمنون إلى أعلى مراتب الأخلاق.

الدَّفعُ بالإحسان إرشادٌ إلهيٌّ لرسوله وأمَّتِه للتَّخلُّقِ بمكارم الأخلاق

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ﴾ دون (ادرأ) مادَّةً وصيغةً:

لم يَستَعمِلِ النَّظمُ الكريم رَدَّ المساءةِ بالإحسان بفعل الدَّرْءِ، وهو الفعل الدّالُّ على الرَّدِّ بسرعة، بل استَعْمَلَ فعلَ الدَّفع لدلالته على القوَّة والسُّرعة في ردِّ السَّيِّئة بالحسنة، وبالعفوِ والصَّفْحِ، ودفعِ الذَّمِّ بالمدح، والجَهْلِ بالعِلْم، والتَّسرُّعِ بالحِلْم والصَّبر[5]، ولَمّا أرادها دعوةً مباشرةً من

الأمـرُ مباشر منه سبحانه في ردِّ السَّيِّئة بالحسنة ردًّا قويًّا سريعًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 14.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 291.
(5) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 163.

اللّه تعالى للمؤمنين؛ ليكونوا نماذجَ في ردِّ الإساءة بالإحسان، وتوجيهًا لهم نحوَ أعلى درجات الأخلاق؛ أورد الفعل بصيغة الأمر، فقال: ﴿ٱدۡفَعۡ﴾.

سِرُّ حذف مفعول ﴿ٱدۡفَعۡ﴾:

لمّا كانت الحسنة مدفوعًا بها؛ تعيَّن المدفوعُ وهو السَّيّئة

حُذِف مفعولُ الفعل ﴿ٱدۡفَعۡ﴾؛ ليظلَّ المعنى محصورًا بين السَّيِّئة والحسنة، فحينما أمر الحقُّ سبحانه أن تكون الحسنة هي المدفوع بها؛ تعيَّنَ أنَّ المقصودَ بالمدفوع هو السَّيِّئة، وبهذا التَّقدير يصبح المعنى: (ادفع السَّيّئة بالتي هي أحسن)، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرّعد: 22]، وهذا الحذف يحمل في طيّاته إشارةً بلاغيَّة دقيقة تدلُّ على أنَّ المقابل الوحيد للسَّيّئة هو الحسنة.

سرُّ التَّعبير باسم الموصول (التي):

تحقيقُ عنصرِ التَّرقُّب والتَّشويق في التَّعريف هو بيانٌ بعد إبهام

في التَّعبير بالاسم الموصول (التي) في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي﴾ يتجلّى عنصرُ التَّشويق والانتظار؛ إذ يأتي الكلامُ على مرحلتَيْن؛ الأولى: تتمثَّل في ذِكْر الاسم الموصول مع إبهامه، وحُقَّ له ذلك، فهو مِن المُبهمات[1]، ممّا يثير في النَّفس شوقًا وترقُّبًا لمعرفة مقصوده، والثّانية: تتَّضح من خلال جملة الصِّلة: ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾، التي تبيِّن المقصودَ، فتجعلُ المعنى أكثرَ وضوحًا وثَراءً، وهذا الأسلوب البلاغيُّ يُحَسِّن توجيهَ الانتباه، ويُشْبِعُ الذِّهن بالتَّركيز على الفعل المطلوب؛ إذ يتحقَّق البيانُ من خلال التَّدرُّج من الإبهام إلى التَّوضيح.

دلالةُ التَّعبير بالضَّمير ﴿هِيَ﴾ عن الحسنة:

دفعُ السَّيِّئة مبدأٌ مُنحصرٌ بما هو أحسن

التَّعبير بالضَّمير ﴿هِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ للإشارة إلى التَّوكيد والتَّمكين للمعنى المطلوب، وهو دفعُ السَّيّئة بالأحسن من الحسنات، فالتَّعبيرُ بالضَّمير هنا يُظهر أنَّ الدَّفع يجب أن يكون مرتبطًا بشكل حصريٍّ بما هو ﴿أَحۡسَنُ﴾[2].

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 178.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 306.

دلالةُ التَّعبير بصيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾:

سرُّ استعمالِ صيغة التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ يكمن في إضفاء مزيدٍ من القوَّة والبلاغة على المعنى المقصود، فلو قيل: (ادفع بالتي هي حسنة)؛ لكان المعنى قد اقتصر على مجرَّد الدَّفع بالحُسن، أمّا التَّعبير بالأحسن؛ ففيه رفْعُ الفعل إلى أعلى درجات الكمال، بدفع السَّيّئة بأفضل ما يمكن من الحُسْن، ليصلَ المؤمنُ إلى أعلى مراتب الإحسان مع الآخَرين، وأبلغ درجات التَّفوُّق في الرَّدِّ؛ إذ مَنِ اعتاد الدَّفع بالأحسن؛ هانَ عليه الدَّفعُ بما هو دونها[1].

مَنِ اعتاد دفعَ السَّيّئة بالأحسن يَهون عليه الدَّفعُ بما هو أدون

ويجوز أن يكون التَّعبير بصيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾ واردًا على سبيل المبالغة في الحثِّ والتَّوجيه، ولفتِ النَّظر إلى عِظَم أهمّيَّة هذا الفعل، والعنايةِ القصوى به، ويُشير إلى أنَّ دفْعَ السَّيّئة بأحسن ما يمكن من الحُسْن ليس مجرَّدَ خيارٍ، بل هو ضرورةٌ عظيمة تعود على فاعلها بالسَّكينة في قلبه، وتزيل شرورَ العِداء، وتَثْبُتُ على دَرْب الخير، فتكسبُ رضا الله، وتُبعِدُ الشَّيطان، وتقود إلى الجنَّة[2].

مبالغةٌ في الحَثِّ على دفع السَّيّئة بأحسن ما يكون

وإنَّما جاء بها على صيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾؛ ترغيبًا في دفع السَّيّئة بالحسنة، وذلك لأنَّ دفْعَ السَّيّئةِ لا يكون إلّا بالعزيمة القويَّة على مخالفة مقتضيات النَّفس وطِباعها؛ إذ إنَّ الغضب النّاتج عن سوء المعاملة من طبع الإنسان، فيثير فيه الرَّغبةَ في الانتقام، فكان الأمرُ الإلهيُّ لرسوله ﷺ بالجزاء الحسن على الإساءة إشارةً إلى فضل هذا الفعل العظيم[3].

دعوةٌ للسُّموِّ فوقَ دوافع النَّفس وانتقامها

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ يُشير إلى الثَّبات والدَّوام، وفيه الإشارةُ إلى الخصلة الحسنة

مِن شيم المؤمن الحقِّ الثَّباتُ والدَّوامُ على خصلة الإحسان

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 200.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 340.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 292.

التي هي أسمى الحسنات، ويقترن ذلك بالإحسان؛ لتحديد أعلى مراتبِ الحُسْن، وهذا يدفع الدَّعوةَ إلى استمرارٍ في العمل بها، حتّى تصبحَ سِمةً ثابتة في الشَّخصيَّة، فتستقيمَ النَّفسُ على جادَّة العدالة الإلهيَّة، ويظهر أثرُ الإحسانِ في كلِّ تصرُّف[1].

فائدة ذِكْر الدَّفعِ بالأحسن:

من فوائد ذِكْر الدَّفع بالأحسن أنَّ الإحسان إلى مَن أساء لا يقتصر على مجرَّد ردِّ الإساءة، بل يتعدّاه إلى جَلْب المودَّة والسَّكينة، فقد يكون الإحسانُ سببًا في تقريب القلوب، بل يؤثِّر في النُّفوس؛ فيُؤدّي إلى تحوُّل العِداء إلى صداقة[2].

الإحسانُ لِمَن أساء يُدنيهِ من الصَّداقة أو يُكسبُه إيّاها

بلاغةُ الجِناس في الحسنة والأحسن:

في الآية جناسُ المماثل بين ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿أَحۡسَنُ﴾[3]، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ يُعزِّز المعنى، ويُضفي جمالًا على النَّصّ، فالجناسُ هنا لا يقتصر على التَّماثل الصّوتيّ فحسب، بل يُبرز التَّفاوتَ بين لفظين: ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ التي هي من جملة الصِّفات الطَّيِّبة، و﴿أَحۡسَنُ﴾ التي ترفع الفعلَ إلى أعلى درجات الكمال، فالرَّدُّ على السَّيّئة لا يكون فقط بالحَسَن؛ بل بالأحسن الذي يفوق كلَّ ما سواه.

تماثلٌ بين الحسنة وما هو أسمى منها وهو الأحسن

دلالةُ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَإِذَا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ عاطفةٌ للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة[4]، وهذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، وفيها تعقيب على نتائج الإحسان في معالجة العداوة، وبيانٌ لما في دفع السَّيِّئة بالأحسن من التَّوفيق والصَّلاح؛ تنبيهًا للمؤمنين على التَّخلُّق بهذا الخُلُقِ القويم،

ثمرةُ التَّخلُّق بخُلُقِ الدَّفع بالأحسن أن يصير عدوُّك المُشاقُّ مثلَ الوليِّ الشَّفيق

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 278.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 404.
(4) د، قباوة، المفصّل في تفسير القرآن، ص: 1697.

بجَعْلِ النَّفس مصدرًا للإحسان وتوابعه، ولأنَّ صلاح الآثارِ يدلُّ على صلاح منشئها، ثمَّ لمّا أمر الحقُّ سبحانه بأن يُدْفَع بالتي هي أحسن؛ أردفَه بذِكْر بعضِ محاسنِ خُلُق الدَّفع بالأحسن[1]؛ إذ يُبيِّن أنَّ مَنْ يعامل السَّيِّئة بالحسنة، ويصبرُ على أذى المخالفين، يُؤتيه اللّهُ من بركات الإحسان ما يُغيِّر قلوبَ الأعداء، فيصبحون كما لو كانوا أصدقاءَ مُقرَّبين، فيغدو عدوُّكَ المُشاقِقُ لك كالوليِّ الشَّفيق عليك[2].

إذا قابلتَ الإساءةَ بالإحسان؛ تحوَّل العِداءُ إلى مودَّةٍ وموالاةٍ

ويجوز أن تكون الفاء في الجملة فصيحة؛ إذ إنَّها تُفيد جوابًا لشرطٍ مُقدَّرٍ؛ إذ يكون التَّقدير: (إذا دفعتَ بالتي هي أحسن؛ صار الذي بينك وبين خصمك من العداوة، كأنَّه وليٌّ حميم)[3]، ففي الفاء إظهارُ النَّتيجة المباشرةِ المترتِّبة على الفعل؛ لتُؤكِّدَ أنَّ الإحسان في مواجهة الإساءة يُؤدّي إلى تحوُّلٍ جوهريٍّ في العلاقات، حتّى يصبحَ العَدوُّ كما لو كان الوليَّ الحميم.

سرُّ التَّعبير بـ(إذا):

الدَّفع بالَّتي هي أحسن يجعلُ من العدوِّ اللَّدود صديقًا حميمًا

استعمال كلمة (إذا) في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ يفيد المفاجأة، ويُعبِّر عن السُّرعة المُدْهِشة في ظهور أثر الإحسان؛ إذ ينقلب العِداءُ إلى صداقة وودٍّ، فيتحوَّل العدوُّ إلى صديق قريب، كما لو كان وليًّا حميمًا[4].

سرُّ العُدول إلى الاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾:

في التَّنكير بيانُ النَّوع وهو الأصل، فيشمل العداوةَ القويَّة وما كان دونها

عدل الحقُّ ﷻ عن ذِكْر العدوِّ مُعرَّفًا بلام الجنس إلى ذِكْره باسم الموصول في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾؛ لأنَّ تنكير العداوةِ مُبيِّنٌ لنوعها، وهو أصل التَّنكير، فينطبق المعنى على العداوة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 292.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 14.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 561.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.

الشَّديدة، والعداوةِ الأقلِّ حِدَّة[1]، فالتَّنكيرُ هنا يفتح المجال لتنوُّع الفهم في قوَّة العِداء أو ضعفِه، ويعكس مرونةَ المعنى وشموليَّتَه.

دلالة التَّعبير بالظَّرف ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾:

بالإحسان تستحيل العداوةُ إلى صداقة ومودَّة

استُعمِل الظَّرفُ في قوله تعالى: ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾؛ ليُفيدَ أنَّ العداوة حاصلة بين الطَّرفيْن، وليست من جانب واحد، فكلُّ واحد منهما عدوٌّ للآخر[2]، وهذه الإشارةُ إلى العداوة المتبادلة تعمِّق الفهمَ بأنَّ التَّوتُّر والتَّصادم بين الطَّرفين واقعٌ، ممّا يجعل فعلَ الدَّفع بالتي هي أحسن أكثرَ تأثيرًا وأهمّيَّةً بتحوُّل هذه العداوة إلى صداقة ومودَّة بموجب الإحسان.

المبالغةُ في العداوة النّاشئة من القوى البهيميَّة

ودلالةُ استعمالِ الظَّرف في قوله تعالى: ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى المبالغة في العداوة[3]؛ إذ إنَّها عداوةٌ متواصلة تنبع من القوى البهيميَّة لدى أحدِ الطَّرفَيْن، حتّى تملأ ما بينه وبين الطَّرف الآخر، وكأنَّها صراع لا يتوقَّف، ومع ذلك جاء الأمرُ الإلهيُّ بالدَّفع بالتي هي أحسن؛ ليكشفَ عن قدرة الإحسانِ على إزالة هذه العداوةِ وتحويلِها إلى مودَّة[4]، ممّا يعكس سموَّ الأخلاقِ ورفعةَ النَّفسِ التي تتجاوز ردودَ الفعل الطَّبيعيَّة.

دلالةُ التَّعبير بالخطاب في ﴿بَيْنَكَ﴾، والغيبة في ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾:

عداوةٌ استحكمت بين الطَّرفين فملأت ما بينهما

في التَّعبير بالخطاب في ﴿بَيْنَكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمن، أو إلى النَّبيِّ ﷺ، أمّا الغَيبة في ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾؛ فهي تشير إلى الطَّرف الآخر، هذا التَّفاوت بين الخطاب والغَيبة يعكس طبيعةَ العداوةِ التي ملأت الفجوةَ بين الطَّرفين[5]، فتحوَّلت إلى حالة شاملة تملأ المسافةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 409.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 375.
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 278.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 188.

بينهما، وأنَّ العداوة قدِ استحكمت بين الطَّرفين، ممّا يجعل الدَّفعَ بالتي هي أحسنُ أكثرَ ضرورةً؛ لإزالة هذه العداوةِ وتحقيقِ التَّغيير.

سرُّ تقديم ﴿بَيْنَكَ﴾ على ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾:

ذِكْـرُ النَّبي ﷺ أو المؤمن مُقدَّمٌ عـلى ذِكْـرِ مَـنْ سواهم

قُدِّم ﴿بَيْنَكَ﴾ على ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾؛ لأنَّ المخاطَب هو النَّبيُّ ﷺ ، أو المؤمنُ هو محور الحديث، بينما جاء الغائب مُؤخَّرًا؛ للإشارة إلى الطَّرف الآخر - وهو الخصم أو العدو - بشكل غير مباشر، فضلًا عن التَّقديم هنا بدأ فيه بالأقرب، وهو المخاطَب، وانتهى بالأبعد، وهو الغائب.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿عَدَاوَةٌ﴾ مُنكَّرةً دون (بُغْض) ونحوه:

مهما عظُمت العداوةُ؛ فإنَّ الإحسان مُزيلٌ لها

سِرُّ التَّعبير بـ﴿عَدَاوَةٌ﴾ مُنكَّرةً يكمن في إبراز عَظَمَة هذه العداوة وعمقها[1]، فالتَّنكيرُ هنا لا يقتصر على تحديد العداوة فحسب، بل يوحي بأنَّها عداوةٌ شديدة وقويَّة، ولو استُعمل لفظُ البُغض أو غيرُه من الألفاظ المحدَّدة؛ لضاق المعنى، وانحصر في نوع معيَّن من العداوة، أمّا التَّنكير؛ فهو يشمل كلَّ ما هو عظيم وشديد في العداوة.

بلاغةُ تركيب جملة: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَاوَةٌ﴾:

تأثيرُ الإحسان في اقتلاع العداوات عـلى تـفـاوت درجاتها

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَاوَةٌ﴾ يجسِّد تمامًا قوَّةَ تأثيرِ الإحسان في إزالة العداوة؛ إذ يعكس شموليَّة الإحسانِ في اقتلاع العداواتِ؛ مهما تفاوتت قوَّتها وضعفُها، وهو تركيب بلاغيٌّ يُظهر أنَّ الإحسان يتناسب مع شدَّة العِداء، وأنَّه كلَّما كانت العداوة أعظمَ، كان الإحسانُ أكثرَ تأثيرًا في تحويلها إلى مودَّة وصفاء، وهو ما يتماشى مع القول المشهور بأنَّ النُّفوس مجبولةٌ على حبِّ مَن أحسن إليها[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 188.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾:

المُعادي يُحَسِّن ظاهرَه ليُشْبهَ الوليَّ الحميم

تشبيهُ العدوِّ بالوليِّ الحميم في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ تشبيهٌ مُرسلٌ بحذف وجهِ الشَّبَهِ[1]؛ إشارةً إلى أنَّ الإحسان يُغيِّر جوهرَ العداوةِ، ويُحوِّلها إلى مودَّة، فالتَّشبيهُ هنا يرسم صورةَ تفاعلِ العِداء مع الإحسان؛ إذ لا يكون العَدوُّ وليًّا حميمًا حقيقةً إلّا بتأثير الإحسان الذي يُحَسِّن ظاهرَه، فيُشْبهُ الوليَّ الحميم[2]، فوجْهُ الشَّبه يكمن في المصافاة والمقاربة، وهو تصوير يعكس تفاوتَ التَّأثيرِ النَّفسي للإحسان؛ إذ لا تتساوى القلوبُ في استجابة واحدة، فالعلاقةُ بين العدوِّ والمُحبِّ قد تتفاوت بحسب قوَّة العداوة السّابقة، ومع ذلك لا يصل العدوُّ إلى مرتبة الوليِّ الحميم بسهولة، فذلك أمرٌ نادرٌ[3].

بلاغةُ التَّشبيه بـ(كأنَّ) دون الكاف:

بين الظَّنِّ واليقين في وصف تحوُّل العدوِّ إلى وليٍّ حميم

يتجلّى الفرقُ بين استعمال (كأنَّ) و(الكاف) في التَّشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، أنَّ (كأنَّ) هنا تُستعمل للتَّعبير عن التَّشبيه الحاليِّ غير المؤكَّد، فهي تُشير إلى احتماليَّةٍ وظنٍّ وتوقُّعٍ، أكثرَ من كونها تشبيهًا مُؤكَّدًا، لا سيَّما إذا لم يكن خبرُها اسمًا جامدًا[4]، بل هو وصف كالوارد في الآية، أمّا (الكاف)؛ فهي للتَّشبيه المُطلق الذي يربطُ بين شيئَيْن دونَ تردُّد أو شَكٍّ، فيكون التَّشبيهُ هنا ثابتًا متحقِّقًا، ولمّا كانت صيرورةُ العدوِّ وليًّا حميمًا ليست حقيقةً ثابتة، والعدوُّ "لا يستلزم أن يصير وليًّا مخلصًا بالمرَّة"[5]، بل هو مقترن مستند إلى الإحسان؛ استعمل أداةَ الظَّنِّ والشَّكِّ (كأنَّ).

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 226.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.
(4) السّبكيّ، عروس الأفراح: 2/ 73، والسّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 486.
(5) النّسفيّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 5/ 426.

سرُّ التَّعبير بـ﴿وَلِيٌّ﴾ مُنكَّرًا دونَ غيره:

جاء اشتقاق (الولي) من الولاية، ومعناه: مَن كان حليفًا ناصرًا لك، وهو ضدُّ العدوِّ[1]، وقد أوردَه نكرةً لزيادة العموم، فيشمل كلَّ مَن قد يتحوَّل من عدوٍّ إلى صديق، من غير تحديد نوعيَّة الوليِّ، أو تعيينِ شخصيَّتِه.

الوليُّ الحقيقيُّ هو مَن كان حليفًا ناصرًا لكَ في مواجهة عدوِّك

دلالةُ الجمع بين ﴿وَلِيٌّ﴾ و﴿حَمِيمٌ﴾:

جمع السّياقُ القرآنيُّ بين (الولي) و(الحميم)؛ ليُعبِّر عن حالةٍ نادرةٍ تتجاوز العداوةَ إلى أعلى مراتب القُرْب والوُدِّ، فـ(الوليّ) يُشير إلى الإخلاص في الوُدِّ والعناية، و(الحميم) يُشير إلى القُرْب الشَّديد الذي يتعدَّى إلى حرارة الحُبِّ والاهتمام، ووجهُ الجمعِ بين هاتَين الصِّفتين: أنَّهما لا تجتمعان مع العَداوة[2].

كِلتا خصلتَي الولاية والقرابة لا تجتمعان مع العداوة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"